فلسفة الكائنات

﴿٣﴾

الزمان

ولد نوح ثلاثة بنين — النبي ، والشاعر ، والفيلسوف

فمدار النبوة الوحي ٠ ومدار الشعر الخيال ٠ ومدار الفلسفة الحقيقة

فالحقيقة ضالة ينشدها طوم بلير في كل بحث

امام الزمان يقف طوم بلير

انني ولدت في زمان ٠ وربيت في زمان ٠ وتعلمت في زمان ٠ وتزوجت في زمان ٠ انام في وقت ، واستيقظ في وقت ٠ اقرأ في وقت واكتب في وقت ٠ واحسن في وقت ، واسيء في وقت ٠ امرض في وقت ، واشفى في وقت ٠ واعيش في وقت ، واموت في وقت ٠

لكل شيء زمان ولكل امر تحت السماء وقت

انني افهم ان حركتي تشغل زماناً كما تشغل مكاناً ٠

منذ بدأت اكتب الى الان مرّ وقت قصير ٠

ولكن من الوقت القصير تتألف الدهور

فان ستين ثانية دقيقة ، وستين دقيقة ساعة ؛ و٢٤ ساعة يوم و٧ ايام اسبوع ؛ و٣٠ او ٣١ يوماً شهر ، و١٢ شهراً او ٣٦٥ يوماً سنة ، و١٠٠ سنة جيل او قرن ٠

لما كنت صغيراً اذهب الى المدرسة مع خالي كنت افهم معنى الوقت، لاننا ندخل المدرسة في الوقت ونخرج منها حين الانصراف في الوقت . وحين دخولي دهليز المدرسة كنت اسأل من اراه من رفاقي « هل صار الوقت » ؟ وحين يقول لي « فات الوقت ودق الجرس » كنت افهم ذلك حالما يحرك شفتيه فاركض مسرعاً خوفاً من مناقشة المعلم الحساب .

الوقت مفهوم عند طوم بلير وعند اصغر ولد

فهو ككلمة « انا » حين اسمعها او ألفظها فالمراد بها مفهوم . ولكني اخاف ان يكون فيها ما في تلك من المشاكل .

لما درسنا الفلسفة فهمنا ان المادة مقياس الفضاء والحركة مقياس الوقت

فنقول مثلاً البعد بين بيروت وصيدا ٢٥ ميلاً والمسافة بين لندن ونيويورك ٣٠٠٠ ميل . واذا لم تتعين نقطتان الواحدة في اول المسافة والثانية في آخرها يستحيل قياس الابعاد . وبذلك تكون المادة مقياس الابعاد او الفضاء . كذلك الحركة هي مقياس الوقت .

فنقول ان الوقت من شروق الشمس الى غروبها ١٢ ساعة

فاذا لم تكن حركة فلا وقت او لا ضبط للوقت

اذا وقف رقاص الساعة لا تقدر ان تفهم كم مر من الزمان وكذلك اذا وقف الفلك فلم تشرق الشمس ولم يغرب القمر بل ظل كل شيء في مكانه . واذا وقف قلب طوم بلير وتوقف نبضه . فذلك يضيع عليه حساب الوقت . فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

قال المعلم — يا طوم ، كم حركة للارض ؟

سؤال مدهش فانني منذ ولدت على هذه الارض كنت انا المتحرك والارض ساكنة . وفي كل حياتي لم أرَ الارض تتحرك ولا ظننت انّ لها حركة .

وقد سألت امي وجدتي وابي وجدي — هل رأيتم الارض تتحرك ؟ فقالوا كلهم — كلا ثم كلا

ولكن اذا قلت للمعلم ان الارض لا تتحرك يهز لي العصا وهذه الحركة تخيفني اكثر من حركة الارض والسماء

فعدلت عن شهادا تاهلي التي لا تنفعني ولجأت الى كتاب المرحوم فانديك وقلت له — يا معلمي للارض حركتان . حركة يومية وحركة سنوية . فمن الحركة اليومية تعاقب الليل والنهار ومن الحركة السنوية تعاقب الفصول الاربعة .

— « عافاك ، يا طوم بلير ، انك ستكون فيلسوفاً حالاً اقعد »

الحمد لله لقد زالت مرارة الموت ... وحاز جوابي القبول لانه جواب فيلسوف . وبعد ذلك فهمت ان الناس اصطلحوا على تسمية المدة بين شروق الشمس في الصباح وشروقها ثانية في اليوم الذي بعده يوماً واحداً وقسموها الى ٢٤ قسماً متساوية الواحد منها ساعة . الخ

وافهم الان معنى قولي ان عمري خمسون سنة . وعمر ابي خمس وسبعون سنة . وعمر جدي — لو ظل حياً الى اليوم — ١٠٠ سنة

واعرف ان المسيح ولد منذ ١٩١٧

وموسى منذ ٣٥٠٠ ونوح منذ ٤٥٠٠ وآدم عليه السلام منذ ٦٠٠٠ او ٧٠٠٠ سنة تقريباً .

ولكني اعرف ان الزمان كان قبل آدم

فمتى ابتدأ وهل له بداية ؟

مسألة حار فيها فكر بلير .

قال العلماء ان العصر الجليدي كان منذ ٢٥٠٠٠ سنة

وان الحياة بدأت على الارض او بالحري ان الارض صلحت لظهور الحياة عليها منذ ما بين ١٠٠ مليون و٤٠٠ مليون سنة . طيّب فهمنا

وقالوا ان عمر الارض اكثر من ٤٠٠٠ مليون سنة

وعمر الشمس ٤٠٠٠٠ مليون سنة

مسلّم به ولكن هل الزمان ابتدأ ببدء وجود الشمس ، او كان قبله ؟

قال موسى « في البدء خلق الله السموات والارض »

فمتى كان ذلك البدء ؟

وهل لم يكن زمان قبل ذلك ؟

ان موسى لم يقل ان الله « خلق الزمان » بل قال انه « خلق » في الزمان « وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً »

أفلم يكن صباح قبل ذلك المساء ؟

وهل الزمان غير مخلوق ؟ — استغفر الله العظيم .

ولكن اذا افترضنا انه مخلوق فماذا كان قبله

هل كان زمان لم يكن فيه زمان ؟ طوم بلير لا يريد ان يقول نعم ·

ان الرجوع الى الوراء ليس له نهاية · وهذا هو الازل ·

فاذاً الزمان ازلي اي لا بداءة له

فما هو الازل ؟ كيف يستطيع طوم بلير أن يتصور الازلية والازل ·

ان مسألة المعلم عن حركات الارض اسهل عليّ ولداً من الازلية اليوم·

فالمشاكل لم تفارقني اذ كبرت بل هي تزيد كلما تقدمت في العمر ·

فيا ويلاه ما اعسر الحياة عَلَى بلير المسكين ·

المعلم رضي يوم جاوبته من كتاب فانديك الحكيم · ولكن عقلي اليوم لا يكتفي باجوبة كل الحكماء · وهو يروعني في تدقيقه اكثر من عصا المعلم·

فماذا اعمل ؟ لا اقدر ان اهرب من عقلي · ولا اقدر ان اقحمه

الازل ! · وكيف يفهم طوم بلير الازل ؟

امام ظلمات الازل يقف طوم بلير المسكين خاشعاً ذليلاً

وها هو يناجي نفسه بين الشعر والفلسفة قائلاً

— ويحك يا بلير · كيف يمكنك تصور الازل

اذا كان العمران كله ينحصر في بضعة الاف من السنين

في هذه المدة المحدودة تنحصر حوادث السياسة والعلم والاقتصاد — والاكتشافات — والانقلابات ···

كل ما اسمعه واقرأه من التواريخ ينحصر في ستة الاف سنة او اقل

في هذه السنين ظهر على مسرح التاريخ الامم والممالك الآتية حسب ترتيبها التاريخي ·

مصر ، الكلدان ، بابل ، اشور ، مادي ، فارس اليونان ، الرومان ، اليهود

هذه امم وممالك التاريخ القديم

ثم العرب ، الترك ، الارمن ، الفرنسويون ، الالمان ، الانكليز ، الروس ، اليابان ، الصين ، الاميركيون

وهذه امم التاريخ المتوسط والجديد ·

كل هذه الامم ظهرت على مسرح التاريخ في حصة من الزمان هي كلحظة قصيرة بالنسبة الى الدهور الازلية ·

في هذه اللمحة القصيرة ظهر موسى ومحمد والمسيح — وبوذه وبرهما وزرادشت · واسسوا دياناتهم المعروفة ·

وما اعظم واهول ما نقرأه عن اليهودية والاسلامية والنصرانية والبوذية والبرهمية والمجوسية ·

فاذا كان ذلك حدث في الزمن القصير فكيف تكون الحال في الازلية··

فلنجل قليلاً في اصل الكائنات علنا نهتدي

« اصل الكائنات »

للعلماء في اصل الاكوان رايان — الاول الرأي السديمي ، والثاني الرأي النواتي ·

— الرأي السديمي —

وصاحب هذا الرأي على ما يظن طوم بلير هو كوبرنيكوس الفلكي وباسكال الفيلسوف . قالا

ان الارض والقمر والشمس والنجوم — التي نراها والتي لا نراها — كانت في الاصل سحاباً لطيفاً منتشراً في ساحة الفضاء الهائلة التي لا نعرف لها حداً .

وهذا السحاب يسمونه السديم .

قالا — تتبرهن لطافة مادته بأنه لو جمع منها ملايين الاقدام المكعبة وضغطت لوسعها كستبان واحد .

من هذا السديم البسيط اللطيف الاصلي تكونت الاجرام على النحو الآتي بيانه —

في زمن مجهول ؛ وبقوة مجهولة ، ولغرض مجهول ، أخذ هذا السديم باجمعه يدور على محوره . وهذه الحركة هي بدء تصوير الهيولى بحر الصورية وعن هذه الحركة نشأ النور والحرارة . وهما اول مظاهر الوجود

وبسبب دوران السديم على محوره انتفخ في وسطه — عند خطه الاستوائي — وتسطح عند قطبيه — حسب نواميس المادة . وزاد الانتفاخ بتوالي الدوران . واخيراً زادت القوة الدافعة في السديم عند اوسطه على القوة الجاذبة . فانفصلت منه عند الانتفاخ قطعة كبيرة . واندفعت الى بعد سحيق في ساحة الفضاء . ثم جعلت تدور على محورها كالها وحول امها ايضاً

فالدورة الاولى هي اليومية · والثانية هي السنوية ·

وبعد مدة عاد السديم فانتفخ من اوسطه · وقذف بقطعة ثانية في ساحة الفضاء · ولكنها لم تبلغ حد اختها الاولى بل كانت اقرب منها · كان السديم ضعف قوة على تعادي الزمان ·

ثم قذف ثالثة ورابعة وخامسة الى ما شاء الله ·

وكل من هذه القطع المقذوفة تسمى قنوان او عنقود

فلندرس تاريخها

قلنا ان هذه القطعة جعلت تدور على مركزها · وبهذه الكيفية انتفخت وولدت كاملها اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً الخ

وهذه المولودات تسمى الشموس او الثوابت · ومنها شمسنا فهي حفيدة السديم وابنة العنقود ·

وجعلت الشمس تدور على محورها كاملها وجدتها فولدت نظيرها على التوالي ·

ومن اولاد شمسنا الارض وعطارد والزهرة والمريخ وزحل والمشتري واورانوس ونبتون · وهذه هي السيارات · ولكل نجم ثابت في هذا الفضاء سياراته ·

والسيارات تلد كاملها · واولادها الاقمار ·

وهنا تنتهي الولادة على ما نعلم ·

فالشمس والدة الارض وجدة القمر

وهي ابنة العنقود وحفيدة السديم .

وهذه سلسلة الكائنات المادية

١ — الاقمار تدور حول السيارات

٢ — السيارات واقمارها تدور حول الشموس الثوابت

٣ — الثوابت بسياراتها واقمارها تدور حول مراكز العنقود او القنوان

٤ — العناقيد بثوابتها وسياراتها واقمارها تدور حول السديم

ولعلماء الفلك في ابعاد الاجرام وحجومها وحركاتها واقدارها وترابطها مباحث ضافية لا محل لها هنا .

— الراي التواتي —

وهو كالسديمي . يفترض الهيولى في حالتها السديمية . ولكنه بدلاً من دورانها على محورها يفترض ان دقائقها أخذت في وقت مجهول ، وبقوة مجهولة ، ولقصد مجهول ، تتجاذب وتتضام فيتحد بعضها بالبعض الاخر . فتكونت في مادة السديم عُقد كالعقد العصبية في الجسم الحيواني

وهذه العقد كالدول الصغيرة في الاجتماع البشري . ومن الواضح ان قوة الجاذبية في العقدة اقوى منها في الدقيقة الواحدة . كما ان القوة الحربية في كتيبة من الجند اقوى منها في اي فرد منهم . وبذلك زاد انضمام الدقائق بعضها الى بعض . فنمت العقد واجتمعت واتسع نطاقها حتى تألف منها — على مر الازمان — الاجرام السموية بين اقمار وسيارات وثوابت والخ

وكلا المذهبين لا يتصل باصل الحركة الاولى ولا يبحث في سببها والغاية

منها ولا بعين زمانها ·

وسواء صح الرأي السديمي او النواتي او فسد كلاهما فطوم بلير ما زال في مكانه القصي عن مدارك الازل

فهو يغمض عينيه ثم يفتحهما كالاعمى حديثاً

ثم يرفع رأسه ويقول

— هل بدأ الوقت بيد، الحركة او تقدم عليها ؟

فاذا كان قد بدأ بيدئها فماذا كان قبله ؟

هل وجدت المادة في لا زمان · وشرعت تتحرك فخلقت الزمان ؟

نعوذ بالله من طوم بلير وسوءالاته ·

ثم قال — وكم من الزمان مرّ على السديم قبلما تحرّك ؟

وكم مضى منذ بدأ يتحرّك ؟

ولماذا لبث ساكناً اولاً ؟ — الى غير ذلك من المشاكل · والخلاصة ان « الازل غير مدرك »

. . . . .

—(المستقبل)—

قال طوم بلير ·

— دعنا من اعماق الازل · ولنحول عنان البحث الان الى المستقبل ·لان السير الى الامام هو سنّة الطبع

وكل ما عن منهج الطبع التوى تنكره النفس ولو نفعاً جنى

وقد استحسن طوم بلير ان يشذ عن الاصطلاحات العلمية ويسلك في مباحثه العويصة مسلك البساطة ليقود الافهام الى الادراك بسهولة وارتياح. فقال — انا اليوم في سن الخمسين

وان شاء الله وابقاني حياً فسأموت ابن مئة سنة

ولكن هل ينتهي الزمان بموتي ؟

لقد كان الزمان قبلي ولم يولد بولادتي . فلا يبعد انه يبقى بعدي ولا يموت بموتي . فمتى ينتهي الزمان ؟ . او هل ينتهي ؟

قال العلماء بانقراض النوع الانساني بعد بضعة الاف من السنين . فان الحرارة الواردة من الشمس الينا — وهي شرط الحياة الضروري — آخذة في التناقص . ومتى نقصت عن القدر اللازم للحياة بيبيد الانسان والحيوان والنبات . وتصير الارض كالقمر خالية من الحياة ومن الصلاحية للحياة .

والاجرام كالسيدات يدركهن الهرم فيتوقفن عن الانتاج فمتى شاخت الارض ، وادركها الهرم ، تصير كجدتي العجوز لا تلد ولا تفرخ . ولكن اذا بلغنا ذلك فهل ينتهي الزمان قبل الارض فلا ريب في انه سيظل بعدها .

وهب ان براكين الارض تفجرت دفعة واحدة ، او اصطدمت الارض بسيار آخر من السابحات في هذا الفضاء اللامتناهي ، فانحلت السموات ملتهبة ، وزالت الاجرام بضجيج ، وذابت العناصر ، واحترقت الارض والمصنوعات التي فيها ، فانتهى العلم والدين والسياسة ، وزالت الكنائس والمدارس والمحاكم ، وعفت رسوم التأليف والاختراع ، أفينتهي الزمان بانحلال النظام الشمسي

او يظل بعده ؟

ان عقل بلير كغيره من العقول يفهم ان الزمان لا ينتهي بنهاية النظام والمادة ، لانه لم يوجد بوجودهما بل هو مستقل عنهما

نعم اننا نقيسه بالحركة ولكن الحركة وان قاسته فلم توجده . كما ان المادة التي بها تقاس الابعاد لم توجد الفضاء بل كان قبلها . فمهما تقدمنا الى الامام يظل العقل يسأل « وماذا بعد ؟ »

ثم ماذا ؟ ثم ماذا وماذا ؟

والجواب الوحيد المعقول هو ان « الزمان لا ينتهي » في المستقبل . وما لا ينتهي في المستقبل هو ابدي . « فالزمان ابدي »

وقد سبق انه ازلي . فهو ابدي ازلي كان من قبل الاجيال والابدي الازلي هو سرمدي . فالزمان سرمدي .

فالسرمد او السرمدي هو ما ليس له بداءة ولا نهاية

قال احد الخطباء يصف الابدية — « اذا جاء الارض طائر في كل مئة سنة مرة واحدة ، وحمل براس منقاره نقطة ماء من الاوقيانوس العظيم لامكنه على مرور الزمان ان ينشف الاوقيانوس . والابدية لا تنتهي »

وقال بلير على نفس القياس — اذا جاء طائر الى النظام الشمسي كل مئة مليون سنة مرة واحدة . وحمل بمنقاره ذرة واحدة من ذرات الهباء المنتشر في ساحة النظام الشمسي والموجود في اجرامها لامكنه نفاد كل الذرات على طول الزمان ، ولكن الابدية لا تزال في بدايتها . فما اوسع المجال على طوم

بلير وما اقصر عقله عن الادراك ·

قال العلماء — ان قسمة الزمان الى ماضٍ وحاضر ومستقبل خطأ · وصوابه ان الزمان قسمان — ماضٍ ، ومستقبل

وان ما يسمى بالحاضر انما هو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل · وكيفية ذلك تتبين مما يأتي —

الزمان هو الكم المنفصل بغير نهاية

فاقسامه تتوالى ولا يجتمع منها اثنان · فلا تدخل سنة ١٩١٨ حتى تنتهي سنة ١٩١٧ · كما ان هذه لم تولد حتى ماتت سنة ١٩١٦ قبلها

وهكذا الشهور والاسابيع والايام · لا يبتدىء واحد حتى ينتهي اخوه · والدقيقة مؤلفة من ستين ثانية لا تبتدىء واحدة منها حتى تنتهي التي قبلها

وتقسم الثانية الى ستين ثالثة · ولا تبتدىء ثالثة حتى تمر التي قبلها · والثالثة جزء صغير من الوقت يكاد لا يدرك لقصره · فان الحواس لا تميز بين المحسوسات الحادثة في أقل من ٢٤ ثالثة · فاذا كانت مدتها اقصر من ذلك اختلطت صورها في الدماغ · مثال ذلك — اذا وضعت ناراً في مقلاع وادرتها بسرعة حول رأسك ظهرت لك النار في دائرة حولك مع ان لا دائرة هنالك · وانما النار في المقلاع وهي دائرة حولك لتنتقل على اجزاء الدائرة في اقل من ٢٤ ثالثة فلا تشعر العين بانتقالها بل تراها ثابتة كأنها دائرة متصلة المحيط من نار ·

فوحدات الزمان كافراد الشاء الداخلة الحظيرة واحدة واحدة · ولنا

قالوا ان الوقت هو الكم المنفصل بغير نهاية . وما نسميه حاضراً انما هو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل لانه لا وقوف في سلسلة الزمان

والنقطة في اصطلاح الرياضيين ما له وضع بغير طول ولا عرض ولا عمق . ولكن اذا امتدت النقطة تألف منها الخط . وامتداد الخط يولف السطح وامتداد السطح يرسم المجسم . واذا دارت النقطة رسمت المحيط واذا دار المحيط رسم الكرة . فالاشكال الهندسية من خط وسطح ومجسم مولفة من النقطة الوهمية فكأن كل شيء من لا شيء . وهذا هو شأن الزمان . فانه مكون من اتصال وحدات لا تدرك قيمتها او لا قيمة لها فيتألف من تواليها المسرمد . الفراغ يحيط بالانسان من الجهات الست وهي فوق وتحت وامام ووراء ويمين وشمال . ولكن الزمان يتصل بنا من جهتين فقط الماضي والمستقبل وكل اجزائه سابق ولاحق او سابقات ولاحقات

وما قيل في المكان يقال في الزمان فان كليهما غير محدود وفيه القضايا الآتية —

١ — لا يتجزأ ولا يتعدد

٢ — لا يشغل وسطاً ولا يخلو منه وسط

٣ — انهما متداخلان غير مختلطين ولا ممتزجين ولا مستقلين

أهما اذن اثنان ام واحد . أم مظهرا واحد آخر هو سر الوجود ؟ أجب يا بلير ! .

قال بلير — انني لا ادري . ولا اجسر ان ادري .

لانني اخاف الكفر والالحـاد ولا اثق بعقلي لانه محدود ، ولا يدرك المحدود غير المحدود والسلام ·

الاسكندرية « حنا خباز »

اذا أحببت انساناً من غير سبب فارجُ خيره ، واذا أبغضت انساناً من غير سبب فتوقّ شره · (جعفر البرمكي)

اكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع ·

(علي بن ابى طالب)

اللاسلكي يرمز الى الدين · فيه نرسل افكارنا الى مجاهل غير منظورة خلال السكون · ونظامه لم يزل خفياً عن الناس · وهذا العالم الواسع مفعم بالخفايا والاسرار · وكلما تعمقت في استكشافها ازداد عجبي ·

(ماركوني)

انها لقساوة فظيعة أن تضرب المقعد بعكازتيه · (فولر)

ما دام الرجل يتطلب الحكمة فهو حكيم · ولكن متى ظن انه حازها فهو جاهل ·